

أسرار القرآن

الجزء العاشر الى اخر الانفال

لإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي الغرائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة /

002 022 3901030

قوله تعالى : **وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ عَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) .**

تأويل الآية :

تأويل هذه الآية : أن الله تعالى بعد أن حكم بأن الأنفال له جل جلاله بقوله سبحانه: (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) . بين هنا سبحانه وتعالى الوجوه التي تقسم عليهم الأنفال قال سبحانه : (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمس)، والغنم : هو ما فاز به الإنسان من أموال المحاربين عنوة ، والفيء : هو ما فاز به المسلمون من أموال الكفار من غير حرب بالصلح أو الخراج ، بدليل قوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول^(١)) وحكم هذا الفيء أن جميعه يقسم بمعرفة رسول الله ﷺ على من ذكرهم الله تعالى ، وأما الغنيمة فإن الله بين الحكم فيها ، فأمره بتقسيمها خمسة أقسام ، الخمس لرسول الله ﷺ ولمن ذكرهم سبحانه وتعالى ، وأربع أقسام من حق المقاتلين تشجيعا لهم .

وتأويل ذلك أن الخمس يكون لله يمد به من شاء من خلقه فهو له ملكا وإيجادا وإمدادا وللرسول ﷺ تصريفا وانتقاعا ، فإن الدنيا والآخرة لله تعالى ، وإنما نسب الخمس له جل جلاله ليسر المجاهدين بفضلهم وإحسانه ، فالخمس لرسول ﷺ يقسمه بين من ذكرهم الله تعالى بقوله : (وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل) فله ﷺ أن يقسم الغنائم خمسة أقسام ، وله أن يفعل بالخمس ما يشاء .

الحكم بعد انتقاله ﷺ :

واختلف العلماء في الحكم بعد انتقال رسول الله ﷺ ، فمنهم من قال : يعطى الخمس للخليفة يقسمه بين مستحقه ، ومنهم من قال : يقسم الخمس على الأربعة

(١) الحشر : ٧

فئات المذكورين فى الآية الشريفة ، والذى عليه العمل فى الحقيقة : ما فعله أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

(ولذى القربى) أى : من لهم قرابة برسول الله ﷺ مع فقرهم ، وقرابة رسول الله ﷺ محصورة فى بنى هاشم وبنى عبد المطلب لأن هاشم والمطلب أخوان ، وكان بنوا المطلب أنصارا لرسول الله ﷺ من أول البعثة ، وقد طلب أفخاذ من قریش أن يشركهم رسول الله ﷺ فى الخمس ، فقال لهم : (هو حق لبنى هاشم وبنى عبد المطلب لأنهم لى وأنا لهم) .

(واليتامى) هم كل صغير ليس له والد ولا مال ينفق عليه منه ، (والمساكين) وهم الذين لا يملكون قوتهم فأسكنتهم الحاجة إلى الأرض مثل الشيوخ والعجزة والضعفاء . (وابن السبيل) وهم المسافرون فى طلب العلم أو هجرة من دار الظلم ، أو لطلب الضرورى من العيش ، والسبيل : هو الطريق كناية عن السفر . (والسائلين وفى الرقاب) والسائلين : هم الذين أحوجتهم الحاجة إلى أن يسألوا الناس ما لابد لهم منه ، ولا يحل السؤال إلا فى هذا الحال حيث يحرم على المسلم أن يموت جوعا .

(إن كنتم آمنتم بالله) هذه الآية جعلت تنفيذ هذا الحكم واجبا ويؤخذ منها أن الخمس الذى هو لرسول الله ﷺ ولمن ذكرهم الله إذا انتقل رسول الله ﷺ يجب أن يرد الخمس إلى الأربعة المذكورين فى الآية .

﴿ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ ﴾

أى : إن كنتم صدقتم بالله وبآياته التى أنزلها (يوم الفرقان) أى : يوم بدر .

العبد هو المراد من ذات الله :

وفى قوله (على عبدنا) إشارة عالية جدا وهى أن مقام العبد أعلى المقامات كلها ، وبكمال هذا المقام يعطى الله الرسالة والنبوة والولاية الكبرى ؛ لأن الله لم يقل على رسولنا ولا على حبيبنا بل قال على عبدنا تشريفا لمقامه ﷺ وحفظا لقلوبنا وأفكارنا لنعلم أن مقام العبد فوق كل المقامات فنسارع إلى أن نتجمل به علما وعملا لنكون عبيدا مخلصين لله تعالى ، ومن جهل مقام العبد جهل كل شئ ومن ظفر بالعبد فاز بكل خير فى الدنيا والآخرة ، والعبد هو مراد ذات الله الذى خلق لأجله كل شئ وخلق لذاته ، وقوله تعالى: (على عبدنا) فيه من تعظيم العبد ما فيه لأنه عبد الذات فى عظمة كبريائها وعزة مجدها ، ومن ذاق حلاوة قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده) وقوله : (فأوحى إلى عبده) يفهم المقام الأحمدي الذى بشر به عيسى عليه السلام (يوم التقى الجمعان) أى جيش الكفار وجيش الله تعالى (والله على كل شئ قدير) أى قدير على ما أظهره من عجائب قدرته وغرائب حكمته مما ظهر فى نصره لرسوله وصحابته .

قوله تعالى : **إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) .**

تأويل الآية :

تأويل هذه الآية الشريفة : أى : اذكروا وقت أن كنتم موجودون (بالعدو الدنيا) و (العدو) قرئت بضم العين وفتحها وكسرهما ، (والدنيا) يعنى القريبة من المدنية مؤنث أدنى، (وهم بالعدو القصوى) (الواو) للحال والجملة حالية ، أى : وكفار قريش (بالعدو القصوى) أى : بعيدين عن المدينة ، (والركب أسفل منكم) (والواو) أيضا للحال (وأسفل منكم) أى : قرب ساحل البحر (ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد) أى : ولو خرجتم عن موعد بينكم لما اتفق لكل فئة وجودها فى مكانها ، ولكنه بتقدير الله لحكمة قدرها سبحانه .

﴿ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

أى : إن الله قدر أن يكون الأعداء بالعدو القصوى وأن تكونوا بالعدو الدنيا لحكمة تتكشف لكم بعد أن قدر الله تعالى أن يبرزها فى الوجود الظاهر . (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) بدلا من قوله : ليقضى ، و (اللام) هنا للعلّة أو للغرض ، وأعمال الله تعالى لا تعلل ، وإنما هى للحكمة التى تظهر بعد ، وإذن فالأعمال الجسمانية التى لا يقصد بها وجه الله تعالى ولو كانت جهادا أو حجا أو إنفاقا لا يقبلها الله تعالى ؛ لأن العامل إذا لم يعرف نواياه فى عمله كان كالحيوان الأعجم لا يفقه لأعماله حكمة .

معنى الآية :

ومعنى الآية : أن الله تعالى قدر إهلاك قريش مبينا سبحانه لهم أن الكثرة والقوة والمنعة تنهزم أمام القليلين إذا أيدوا بروح من جاهدوا نصرة له جل جلاله (ويحيى من حى عن بينة) أى : ولينصر الله من نصره مع قلتهم وقلة عددهم وعددهم (عن بينة) أى : عن بيان قامت به الحجة أن النصر من عند الله . قال تعالى (وما النصر إلا من عند الله)^(١) .

(١) آل عمران : ١٢٦ .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(اللام) هنا للقسم تأكيدا للخبر ، و (سميع) أى : يسمع دعاء من سأله خصوصا فى مواطن الشدة والجهاد فيأبىه ويغيثه بخفى لطفه من حيث لا يعلم السائل و(عليم) أى يعلم ما عليه كفار قريش من الكفر والعناد لله تعالى ولرسوله ﷺ ومن الخيلاء والبطر فيعجل لهم النقمة ، وكذلك يعلم ما عليه أهل الإيمان من الغيرة لدينه والمسارة إلى إعلاء كلمته ونصرة نبيه ﷺ فيؤيدهم بروح منه .

قوله تعالى : إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَنَّاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ

وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) .

معلوم أن منام رسول الله ﷺ كشف صريح ، أما منامنا نحن فتصوير للحقائق يحتاج إلى تأويل و(قليل) أى : إنهم فى الحقيقة قليل بالنسبة لرسول الله ﷺ ؛ لأن كثرة عددهم وعددهم مع فقدهم التأييد من الله وحسن النية فهم قليل ، ومعنى (إذ يريكهم) أى : يجعلك تبصرهم بعينك فى منامك ؛ لأن الرؤيا فى المنام تساوى النظر فى الحقيقة (ولو أراكم كثيرا) أى : لو أن الله تعالى أراكم فى منامك كثيرا ورؤيته ﷺ كشف صريح ، إذا تقرر ذلك وأراهم الله نبيه كثيرا لوقع ما أخبرنا الله به من قوله تعالى : (لفشلتم ولتنزعتم فى الأمر) (والفشل) هو الضعف المؤدى إلى الهزيمة و (التنازع فى الأمر) هو الاختلاف والمعارضة فيه .

(ولكن الله سلم) أى : إن الله عاملكم بلطفه وأكرم حبيبه ومصطفاه فيكم فسلمتم من الشر الذى كانت تقتضيه المنازعة والمعارضة لو أراكم كثرة العدو مع وفرة الماء والزاد والعدد والعدة عندهم وصلاحيه مكانهم للحرب ، وقلة الماء والعدد والعدة عندكم وفساد الأرض التى أنتم عليها لأنها كانت كثيرة الرمال الناعمة التى لا تستقر عليها الأقدام ، فنصرة الله لكم على أعدائكم فى هذه الحالة يعد معجزة كبرى لرسول الله ﷺ .

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

أى : محيط علما بنواياكم ودخائل نفوسكم التى لا يطلع عليها غيركم وعليم أيضا بخبث نوايا المشركين وسوء مقاصدهم ومسارعتهم إلى مساخط الله تعالى عليهم فعاملكم بما فى صدوركم وعاملهم بما فى صدورهم .

قوله تعالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي

أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) .

حكمة هذا الكشف الإلهي :

واذكروا من منن الله العظمى عليكم رؤيتكم لأعدائكم عند اللقاء قليلا تصديقا لمنام رسول الله ﷺ ، فإنكم رأيتموهم بأعينكم في قلة وذلة ولم يكونوا كذلك ، ولكن الله تعالى كشف عن بصائركم الحجب فرأيتم بأعينكم ما هم عليه من ذل الكفر ومهانة التكذيب بآيات الله وخزي محاربة الله تعالى ، ولهذا الخبر حكم كثيرة ، منها ان الله كاشف المؤمنين بقدر الكفار عند الله تعالى تثبيتا لقلوبهم واطمئنانا لنفوسهم ، ولولا ذلك لانهزموا ؛ لأن العقل والمنطق يحكمان باستحالة نصره ثلثمائة رجل وثلاثة عشر عزل من الاستعداد بالسلاح على جيش قوى عددا وعدة ووفرة في الزاد والشراب .

﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾

حكمة هذا التقليل :

ولهذا التقليل حكمة عالية أيضا : فإن المشركين لما رأوا جيش المسلمين قليلا ازدروا به واحتقروه ولم يحسبوا له حسابا ، ولو أنهم رأوه كثيرا لأعدوا له العزيمة والهمة والحماس ، ولما قال أبو لهب بمكة ، إنما نصر علينا محمد بالملائكة التي جاءت من السماء ، فكان في ذلك خزي وعار لهم وتلك الحكمة فوق العقل ، لأن العقل يرى أن التأييد الإلهي لنا كان يقتضى أن يجعلنا كثيرا في أعينهم ليفزعوا منا .

﴿ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

أي : لينفذ الله تعالى ما قدره من تقليل جيش المشركين الذي يقرب من الفين بأحباشه وأتباعه وفي أعين جيش أقل من ثلث الألف ، فيقضى الله أمرا من عجائب القدرة وغرائب الحكمة وباهر المعجزات (والى الله ترجع الأمور) أي أن الله افتتح إيجاد هذا العالم وقدر له عمرا معلوما فإنه سبحانه الذي قدر رجوع العالم إليه بعد موته بإحيائه الحياة الثانية (ليقضى الله أمر كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) كلها للفصل فيها بالقضاء العادل .

قوله تعالى : يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ

كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) .

إذا لقيتم فئة من الكفار لجهادهم في سبيل الله (فاثبتوا) ثبات الواثق بنصر الله ، المسلم أموره كلها لله ، المجاهد لتكون كلمة الله هي العليا (واذكروا الله كثيرا) أمر من الله للمؤمن أن يستغرق كل أنفاسه في الذكر فلا يخلى نفسا من أنفاسه من

الذكر حتى فى وقت الفزع الأكبر ، فإنه سبحانه أمرنا بالذكر الكثير عند الملحمة الكبرى حيث تطيش العقول وتنتبتل الألسنة ويهلع الجبان ، يأمرنا ربنا بذكره كثيرا .

حقيقة الذكر :

وقد تأول هذه الآية بعض العلماء بأن الذكر هنا : الدعاء ، ولكن الدعاء ذكر قليل والمأمور به هو الذكر الكثير ، ولا يتحقق الذكر الكثير إلا إذا كان ذاكرا بلسانه بالدعاء ذاكرا بقلبه مستحضرا القريب المجيب المغيث القوى المتين ، ذاكرا بيديه الطعن والضرب ذاكرا برجليه الكر والفر فى سبيل الله ، ذاكرا بعينه النظر إلى المواقع التى تضعف العدو ذاكرا بأذنيه الإصغاء إلى أمر القائد ونهيه ، ذاكرا بكل جسمه يتمنى أن يمكن الله للمسلمين فى الأرض ، وأن يهلك عدوهم وأن يرزقه الشهادة على الإسلام ، وبهذا الموقف يكون المجاهد قد ذكر الله كثيرا بإخلاص ويقين ، بل وقد يحصل له الشهود حتى يرى جمال ربه جلّيا ، وإذا كان ذكر الله تعالى واجبا على المؤمن فى وقت الفزع الأكبر فكيف يكون وجوبه عليه فى أنفاس الصفاء حتى لا يشغله عنه مرض أو فقر أو خوف عدو ظالم .

وهذه الآية أقامت الحجة على أن الله يحب من عبده دوام ذكره وأنه ما ابتلى المؤمنين إلا ليديموا ذكره بالدعاء والتضرع والتبتل ، ويكثرُوا ذكره بتلاوة القرآن الكريم لتكون الألسنة رطبة بذكره دائما .

فلاح الدنيا وفلاح الآخرة :

(لعلكم تفلحون) أى : لتفوزوا بالفلاح ، وهو الفوز بكل المقاصد فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا : فنصر من الله قريب وتمكين فى الأرض بالحق وظهور الحق على الباطل ، وأما فى الآخرة : فيكون بالموت على الإسلام ، وإكرام الله لهم بجعل قبورهم روضة من رياض الجنة ، وتفضله على الشهداء بأن يجعلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ثم بحملهم يوم القيامة على نجب من نور إلى رضوان الله الأكبر لأنهم باعوا النفس والمال فى سبيله سبحانه ، وهذا ما يمكن أن يبينه اللسان عن الجنان ، والحقيقة : أن الله أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ^ط

وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) .

آداب المجاهدين :

وفى هذه الآية بيان الآداب التى يجب أن يكون عليها المجاهد ، وهى السياسة الحكيمة التى أمر الله بها المجاهدين فى سبيل الله .

وأولها : الأمر بالثبات . وثانيها : الأمر بذكر الله كثيرا . وثالثها : إطاعة الله ورسوله ﷺ فيما أمرنا به من مجاهدة أعدائه وأعدائنا ، وإطاعة الرسول فيما بينه لنا وسنه ﷺ ، ومن غير أن يجاهد لعله أو لغرض أو لطمع فى غنيمة أو حب انتقام من عدو ، فإن ذلك كله مما يحبط الأعمال .

﴿ وَلَا تَنَزَعُوا فِتْفَشُلُوا وَتَذْهَبَ رِجْمُكُمْ ﴾

التنازع نتيجة الاختلاف فى رأى :

التنازع : هو وقوع الاختلاف بينهم مما يؤدى إلى التفرقة والضعف والوهن ، كما أنه يقوى العدو ويشغل المجاهدين بغير محاب الله ومراضيه ، ولهذا نهاهم سبحانه عن التنازع ، لأنه نتيجة الاختلاف فى رأى ، والأخذ بالرأى محذور عليه شرعا ما دام صريح القرآن بين الحقائق ، وكذلك القياس محذور عليه شرعا ، اللهم إلا إذا لم يكن ثم صريح القرآن ، وأيضا الحكم على حدث من الأحداث بالحل أو الحرام أو الإباحة أو الحظر فلاهل الاجتهاد أن يستنبطوا الأحكام بالأشباه والنظائر ، ولذلك رأى بعض العلماء أن الأخذ بالقياس حرام ، ولا يأخذون إلا بالكتاب والسنة أو بإجماع الصحابة أو باستنباط العلماء الراسخين فى العلم إذا لم نجد الحكم صريحا فى الكتاب والسنة والإجماع ، ومن خالف تلك الأصول الثلاثة برأى أو قياس فقد قدم بين يدي الله ورسوله وقد نهانا الله عن ذلك بقوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) وما تنازع قوم وهم فى عمل الله ولرسوله إلا دل ذلك على مرض فى قلوبهم ومنافسة فى حظ يزول حفظنا الله تعالى من شرور مرضى القلوب ، ولا يميل عن الصريح إلى رأى والقياس إلا من رضى بالعاجلة وأحب أن يتجمل لأهلها (فتفشلوا وتذهب ريحكم) أى : تجنبوا عند لقاء عدوكم أن تنهزموا أمامه من غير تحرف لقتال أو تحيز إلى فئة ، فإن المنهزم - متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة - يكون مجاهدا حقا ، وهى رخصة فى وقتها من أهم العزائم ، فإن الأخذ بالرخص فى مقتضاها عمل بالعزائم ، فالمفطر فى سفر أو فى مرض عند الله صائم وله أجر الصائم ، لأنه نفذ حكم الله تعالى كما نفذ الصائم (وتذهب ريحكم) الريح هنا : هو الدولة والسلطنة ، فإن أصحاب السفن يرون الريح نجاة لهم وفوز ؛ فإذا أسكنت الريح تعطلت السفن ، وإذا أقامت الريح فتحت أبواب الخير لهم ، وقوله تعالى : (وتذهب ريحكم) أى : دولتكم ، وقد نفهمها على ظاهرها وهو الريح الذى هو الهواء ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : (نصرت بالصبا وأهلكتمود بالدبور) . والصبا هو : الريح الذى يأتي من الشمال والدبور : ما يأتي من الجنوب ، والتأويل الأول أولى وقول رسول الله ﷺ معجزة من الله له .

﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الصبر : هو حبس النفس عن الجزع عند نزول المصائب - أعاذنا الله تعالى -
وقد أمرنا بالصبر عند الملحمة الكبرى مع الكفار وهو الأدب الخاص بعد ما تقدم
من الآداب ، فإن الله أمرنا بالثبات عند لقاء الأعداء وبذكر الله كثيرا وبإطاعة الله
ورسوله ونهانا عن التنازع ، ثم أمرنا بالصبر جل جلاله ، والصبر هنا هو الصبر
بالله والصبر لله ؛ لأن المجاهد لا صبر له إلا بالله تعالى ولا يتحمل تلك الشدائد إلا
الله ، ليفوز برضوانه الأكبر أو بالجنة أو بالنصرة والغنيمة أو بها جميعا .

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

المراد بالمعية :

والمعية معلومة وتفيد وجود الآخر معك ، وهى هنا : بمعناها اللغوى مستحيلة
على الله تعالى وما بقى إلا أن يكون الله معنا بنصره وخفى ألطافه وحسن تدبيره ،
وسابق أقداره معية فوق معية من يكون معنا فى الزمان والمكان ، فإن المراد
بالمعية نيل الخيرات لا مقابلة الأجسام ، وكم من إنسان متمكن فى المعية مع
مجانسه وهو ينوى به الضرر ، وصدق الله العظيم فكم رأينا أفضاله مبينة عند
الصبر وسريع إعانته عند الرضا ، حتى تحققنا بمشهد فوق المعية فرأيناه جل
شأنه أقرب إلينا من أنفسنا بل ومن حبل وريدنا ، فسبحان من لا يعلم قدره غيره
ولا يعلم الواصفون صفته ، فنحن آمنة وصدقنا وسلمنا بما أخبرنا من الصفات كما
هى ، فهو معنا ونحن معه وهو سبحانه أقرب إلينا من حبل وريدنا ، كما أخبر عن
نفسه وأخبر عنه الصادق الأمين والرسول الكريم سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد ﷺ .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ

وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) .

هذه الآية خبر من الله تعالى عن كفار قريش الذين خرجوا لنجاة غيرهم ، فאלله
تعالى يأمرنا أننا إذا خرجنا للجهاد لا نخرج كما خرج هؤلاء المشركين ، وبين لنا
صفات خروجهم فقال سبحانه : ولا تكونوا يا أمة حبيبى محمد ﷺ فى خروجكم
إلى القتال كخروج أعدائكم ، الذين خرجوا بطرا ورياء ، والبطر : هو الأشر بغيا
وطغيانا بالعوافى وبالأموال افتخارا على خلق الله تعالى .

﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾

و (الرياء) (والرئاء) قراءتان مشهورتان بأيهما قرأت أصبت ، والرياء : إظهار الطاعة وإخفاء المعصية، كما أن النفاق : إظهار الإيمان وإخفاء الكفر ، ودليل ذلك : أن أبا سفيان بن حرب أرسل إلى أبي جهل (إنكم خرجتم لإنقاذ العير والعير قد سلم فارجعوا إلى مكة) فقال أبو جهل : (لا واللات والعزى لا نرجع حتى نصل بدرًا وننحر الجزور ونشرب الخمر وتغنينا المغنيات ونقهر محمداً ومن معه وثبت أن خروجهم : بطرا ورئاء الناس وصدا عن سبيل الله ؛ فقدّر الله القوى القهار أن ينحروا أنفسهم بسيفوف المسلمين ، وأن يشربوا بدل الخمر نقيع الدم ، وأن تبكيهم النائحات بدلا من أن تغنيهم المغنيات

﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

حكمة الإتيان بالفعل المضارع :

عطف الجملة الفعلية على الاسم، فإن المعنى هنا : خرجوا بطرا ورئاء الناس ويصدون ، وكان السياق يقتضى : صدا عن سبيل الله ، لحكمة عالية وهى أن الاسم يقتضى الثبوت والاستقرار ؛ لأن البطر والرئاء لازمتان لكفار قريش ولكل عنيد من الناس ، ولكن الصد عن سبيل الله لم يحصل منهم إلا بعد ظهور رسول الله ﷺ فافتضى أن يؤتى بكلمة تفيد التجدد ، حيث أن الصد عن سبيل الله ليس من الصفات الفطرية فيهم لأنها حديث ببعثة رسول الله ﷺ ، والفعل المضارع يفيد التجدد والحدوث كما نقول : فلان يأكل وينام أى يجدد الأكل والنوم فى كل حين ، فحسن عطف الفعل المضارع على الاسم هنا لبيان مزيد معنى لا يظهر إلا به .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يعنى : أن الله تعالى أحاط بعملهم قبل إيجادهم فى هذا الكون ؛ لأنه قدره ودبره وبقدرة وحكمة أبرزه وجعلهم أسبابا له ، وفى هذا البيان تحذير من الله تعالى لنا لئلا نتشبه بهم حتى فى أعمالهم ومعاملاتهم وعوائدهم وعباداتهم وخروجهم ودخولهم ولا فى ملابسهم التى جعلوها طقوسا لدينهم .

قوله تعالى : وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ

مِنَ النَّاسِ وَإِنِّ جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ

إِنِّ بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّ أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(٤٨).

إبليس يطمأن قريشا ثم يفر هاربا :

الواو : للعطف ، والجملة معطوفة على خرجوا ، والمعنى : واذكروا إذ زين لهم الشيطان أعمالهم (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس) ، وهذه الحادثة التي يخبرنا الله تبارك وتعالى عنها أن قريشا عند خروجهم للغير تذكروا ما بينهم وبين بنى بكر من كنانة من العداوة ، وخافوا أن يهجموا على مكة بعد خروجهم منها فهموا بالبقاء ، فجاء إبليس متمثلاً بسراقة بن مالك من زعماء كنانة وقال لهم : ما أخبرنا الله به عنه بقوله : (لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) ومعنى ذلك أنكم فى قوة ومنعة وها أنا معكم بصناديد قومى ولا قوة للناس على قهركم ، فاطمأن قريش بسراقة لأنه عظيم قومه ، وخرجوا وهو معهم يشجعهم حتى وصلوا إلى بدر وهو يحمل رايته ووراءه نفر من أقاربه حتى وصلوا بدرا (فلما تراءت الفئتان) أى جيش قريش وجيش رسول الله ﷺ وكان سراقة الذى هو إبليس واضعا يده فى يد عظيم من قريش (فلما تراءت الفئتان) أى : وقعت عين كل فئة على الأخرى جذب القرشى يد سراقة ، فسل يده من يده ولطمه فى صدره ، وقال : دعنى فإنى أرى مالا ترون وفر هاربا ، فقال له القرشى : (ما هذا الغرور الذى أوقعتنا فيه) فلم يلو عليه ، وذلك لأن إبليس الذى تمثل بسراقة قد رأى جبريل بين يدي رسول الله ﷺ ومعه ألف ملك فولى منهزما وقال ما أخبرنا الله به عنه .

﴿ إِنِّى أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

وتأويل هذه الآية : أن إبليس لما رأى أنه تجاوز ما حده ربه له من أن يقف لنا على الصراط المستقيم وأن يأتينا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وأن يشاركنا فى الأموال والأولاد فقط ، وأنه ليس له أن يحارب ملائكة الله تعالى انقلب على وجهه فزعا قائلاً : (إنى أخاف الله) لأنه لعنه الله أضله الله على علم ، فهو يعلم حق العلم عظمة الله وكبريائه ، وإنما كان ضلاله حسدا منه لآدم أعاذنا الله من الحسد .

﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

هذا من كلام إبليس ولكنه لا يعمل بعلمه ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهو من جنود إبليس ، وهذه الآية بيان من الله لأهل الإيمان أن يخالفوا ما كان عليه كفار قريش ، وأن يسارعوا إلى إطاعة الله وإطاعة رسوله ﷺ .

قوله تعالى : إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ

دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) .

واذكر إذ يقول المنافقون - وهم قوم ممن أخفوا الكفر وأظهروا الإيمان - والذين فى قلوبهم مرض : هم جماعة من أهل مكة ممن أسلموا ولا بس إيمانهم الشك والريب ، وخرجوا مع كفار مكة قائلين فى أنفسهم إذا وجدنا رسول الله ﷺ فى قوة ومنعة تركنا المشركين وذهبنا إليه ﷺ وإلا أقمنا ، فلما التقى الجمعان قال

الذين فى قلوبهم مرض وهم من مكة ، والمنافقين وهم من المدينة عندما التقى الجمعان وتحققوا قلة المسلمين وكثرة الكافرين ما أخبرنا الله به عنهم : (غر هؤلاء دينهم) أي أن مرضى القلوب والمنافقين قالوا : إن المسلمين صدقوا وعد الله تعالى بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فثبتوا أمام هذا الجيش الجرار مستميتين لغرورهم بما علموه من نعيم الجنة ، وأبى المنافقون أن يقاتلوا المسلمين ، وأبى مرضى القلوب أن يقاتلوا مع المشركين لكنهم قتلوا جميعا .

وهذا البيان من الله تعالى لما عليه المنافقون ومرضى القلوب ، الذين يسارعون إلى تحصيل حظوظ الحياة الدنيا من غير مراقبة لأحوال الدين ، والمنافقون يخفون عداوة المسلمين ويظهرون محبتهم خوفا من سطوتهم ونفوذ كلمتهم وهم شر البرية ، لأنهم أضروا علينا من الكفار الذين لا يوفق الله كيدهم .

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هذه الآية خبر من الله تعالى تبين ما يجب أن يكون عليه المؤمن من حسن الثقة بالله وكمال التوكل عليه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : (ومن يتوكل على الله) أي : يسلم جميع أموره لله تعالى فإن الله (عزيز) أي : قوى قادر قاهر عند نصره أوليائه وقهره أعدائه (حكيم) أي : ينصر المؤمنين ويؤيدهم بحكمته ويهلك الكافرين وينتقم منهم بحكمته .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) .

تأويل الآية :

تأويل هذه الآية : أن الله تعالى يخبر رسوله محمد ﷺ مخاطبا له بقوله سبحانه : (ولو ترى) الواو هنا للحال ، و (لو) حرف امتناع ، و (ترى) بمعنى تنظر (إذ) يتوفى الذين كفروا الملائكة) أى : وقد قبض الملائكة أرواح الذين كفروا (يضرّبون وجوههم وأدبارهم) و (وجوههم) جهة الأمام من أجسامهم ، و (أدبارهم) جهة الخلف من أجسامهم ، وقال بعضهم : إن الضرب على الوجوه وعلى الدبر وهو أخذ بظاهر اللفظ ، والتأويل الأول أقرب ؛ لأن المراد وقوع أليم العذاب بهم ، وذلك لا يكون إلا بضرب جميع الجسد ، واختلفوا فى وقت هذا الضرب فقال بعضهم : هو يوم بدر لأنه تقدم ذكره ، وقال بعضهم : هو يوم القيامة عند سوقهم إلى جهنم ، وقال بعضهم : هذا الضرب لكل كافر عند موته وكل ذلك جائز .

وفى هذه الآية تخويف شديد لأهل الإيمان يوجب عليهم دوام المراقبة ، خوفا من دخول الشرك الخفى عليهم . قال ﷺ (إن الشيطان ليجرى فى ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه) .

هذه الآية خبر من الله تعالى عن قول الملائكة للكافرين يوم بدر أو يوم القيامة أو عند موتهم كما تقدم ، وعذاب الحريق أى : العذاب المحرق المؤلم .

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) .

هذه الآية من قول الملائكة أيضا ، وهذا العذاب إنما هو على الشرك بالله ، واليد لم تشرك فلزم أن نتأول الآية ، وتأويلها أن (اليد) كناية عن القدرة والقوة ، والقدرة إنما هى فى القلب ومنه تصدر للجوارح ، وتكون المعنى بما عقدتم قلوبكم على الكفر وقدمتموه لأنفسكم ونسب التقدم سبحانه إليهم سبب لإحداث تلك الخطايا بعد أن بين الله لهم محابه ومراضيه بالمعجزات والقرآن على لسان حبيبه محمد ﷺ .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

الظالم : هو من تصرف فى ملك غيره تصرفا يضر بالمالك ، وأما المالك إذا تصرف فى ملكه بعد أن بين سبل نيل المنافع والخيرات ، وأعان على الفوز بها ، وأقام الحجج الناصعة على أنها خير وسعادة ، وبين طرق الخسران ومناهك الهلاك ، وأنذر وتوعد ثم أحسن إلى من أطاعه وعاقب من عصاه ، فإنه لا يكون ظلما أبدا بل يكون متفضلا عادلا ، وتنزه ربنا وتعالى عن الظلم ؛ لأنه جل جلاله خلق الخلق من العدم وأمدهم بما لا قوام لهم إلا به من نعم لا حصر لها ولا عد ، وبهذا أثبت أنه سبحانه تنزه عن الظلم منه وعليه ؛ لأنه لا يخاف وقوع مضرة عليه من غيره فينتقم منه ظلما .

قوله تعالى : كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) .

تأويل الآية :

تأويل هذه الآية : أن الله تعالى يخبرنا عن كفر قريش أنهم كذبوا رسوله ﷺ وحاربوه دائبين ، أى : مستمرين (كذاب آل فرعون) أى : كعادة آل فرعون فى

تكذيب موسى عليه السلام ومحاربتة (وكذاب) من قبلهم من قوم نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم ، فانتقم الله منهم بالإغراق أو بالخسف أو بالمسخ أو بالطاعون ، وانتقم من كفار قريش بالسيف ، لأنهم استمروا في عملهم كذاب آل فرعون ومن قبلهم .

ومعنى الآية الشريفة : أى : كعادة آل فرعون التى استمروا عليها ومن قبلهم كفرا بآيات الله أى برسله وحججه فأخذهم الله تعالى بالغرق فى عهد نوح عليه السلام وفى عهد موسى عليه السلام وبالخسف والسخ مع غيرهم ، وهذا الأخذ الانتقامى بسبب ذنوبهم التى هى الكفر بالله وتكذيب آياته ، والله قوى فى بطشه وانتقامه وإهلاكه أعداءه (شديد العقاب) أى شديد فى عقوبته إذا أخذ الكفار لم يفلتهم ، أعاننا الله وإخواننا المؤمنين من شديد عقوبته جل جلاله .

قوله تعالى : **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا**

مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) .

إن أحباب الله المقربين أعلمهم الله أسباب تغير النعم ونزول النقم ، فتراهم يتقون تلك الأسباب ويحذرون غيرهم من وقوعها ، وسبب نزول هذه الآية : أن الله تعالى أنعم على قريش بنعمته العظمى وهى سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد ﷺ لأن الله جل جلاله بعثه رحمة للعالمين ، كما هو ظاهر من قول الله للمهاجرين والأنصار (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) .

فنعمة الله علينا هى رسول الله ﷺ نعوذ بوجه الله الكريم من تغيير تلك النعمة ومن مخالفة سنة رسوله ﷺ ، فلما لم تقبل قريش نعمته ولم تشكرها بالإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم سلب منهم الانتفاع بتلك النعمة وأهلكهم كما أهلك آل فرعون قبلهم وهى سنة الله الماضية فى خلقه .

عدم القيام بشكر النعمة موجب لسلبها :

وهذه الآية الشريفة : من مخوفات القرآن ، فإن كل إنسان أنعم الله تعالى عليه بنعمة ولم يشكرها بالقيام لله بما أمره فيها سلبها منه نعوذ بوجه الله الكريم ، وفى الحكمة : (إن الله يعطى النعمة بفضله ويسلبها بعدله ، ومن أحب دوام النعمة ومزيدها شكر الله عليها فحفظ له النعمة وزاده) قال تعالى (ولئن شكرتم لأزيدنكم) وما ترك من الجهالة شيئا عبد أنعم الله عليه فاستعمل نعمته فى مغاضب الله فاستحق سلبها فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، فإن واهب النعم تفضل بها لي شكر ويذكر لا لينكر ويكفر ، ولكن قتل الإنسان ما أكفره ، أمامه أبواب الخير مفتحة ويسدها فى وجهه ويفتح على نفسه أبواب الشر ، والإشارة عائدة إلى عاجل

عقوبته لقريش في الدنيا لكفرهم به سبحانه ولتكذيبهم بآياته والقوم هم المجتمع من الناس في بلد أو أكثر .

(حتى يغيروا ما بأنفسهم) أي : حتى يخالفوا أوامر الله ونواهيه (وإن الله سميع عليم) أي : إنه سبحانه وتعالى يسمع كلام الألسنة وخواطر النفوس ويعلم السر وأخفى وفي هذه الآية : تهديد ووعد لأهل الكفر به سبحانه .

قوله تعالى : **كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) .**

تأويل هذه الآية - وقد تقدم بيان فيها : أن الله تعالى يقول : إن قريشا تعودوا المسير في طريق آل فرعون ومن قبلهم من التكذيب بآيات الله تعالى ومن الكفر به ومن محاربة رسله ، فأهلك الله قريشا لتكذيبهم بآيات الله بالسيف كما أهلك من قبلهم بالغرق والرجفة والمسح والخسف وبحبس الأمطار والضفادع والقمل ، وبغير ذلك من أنواع البليات التي انتقم الله بها منهم وهي سنة الله الماضية في خلقه ، فمعنى (كذاب آل فرعون) أي : كالعادة التي دأب عليها آل فرعون مستمرين هم ومن قبلهم من الأمم ؛ فأهلكهم الله لتكذيبهم بآياته كذلك فعل كفار قريش فدأبوا مستمرين على التكذيب بآيات الله وعلى الكفر به فأهلكهم الله كما أهلك من قبلهم ولكن بالسيف ؛ لأن خاتم الرسل ﷺ بعثه الله رحمة للعالمين وقد يكون للعرب ولأبنائهم من بعدهم خلف يوحدون الله تعالى ، وأما من قبله ﷺ من الأمم فإن الله استأصلهم لتظهر مزية خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، لتقوم الحجة أن الله بعثه رحمة وأنه خاتم الرسل فلا نبي بعده ، فلو استأصل قومه جميعاً لما بقي من يبلغ رسالة رسوله ، فانتقم الله من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ بالسيف وأبقى من سبق في علمه لهم الحسنى فأسلموا ونصروا الدين ونشروه في الآفاق في عصر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾

أنزلت تلك الآية بعد نظيرتها لفرق في اللفظ والمعنى ، فليست مكررة بل هي لمزيد بيان ، فالآية الأولى مجملة وهذه مفصلة ، وفي الأولى : (فأخذهم الله بذنوبهم) وفي الثانية : (فأهلكناهم بذنوبهم) وفي التكذيب بآيات الله دليل على أنهم كذبوا برسول الله ﷺ وأنكروا رسالته ، وفي الأولى كفروا (والكفر) جحود الله تعالى والتكذيب بآياته .

(فأهلكناهم بذنوبهم) فأهلك بعض الأمم - كما قدمنا - بالرجفة والخسف والمسح والطاعون وأهلك بعضهم بالغرق ، ولكنه ذكر فرعون مع أنه مذكور مع من أهلكهم تشبيهاً عليه لما ارتكبه من دعوى الألوهية والربوبية ، قال الله مخبراً

عنه : (ما علمت لكم من إله غيري) وقال تعالى مخبراً عنه أيضاً ؛ (أنا ربكم الأعلى) فناسب ذكره خاصاً بعد ذكره عاماً .

(وكل كانوا ظالمين) أى : وكل الأمم الذين قدر الله أن يهلكهم من كفار قريش ومن قبلهم كانوا ظالمين لأنفسهم لكفرهم وتكذيبهم بآيات الله . قال تعالى : (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)^(١) .

قوله تعالى : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) .

تأويل هذه الآية : أن شر ما يدب على الأرض من الإنسان فما دونه هم الذين كفروا بالله ورسله ، وهم شر على أنفسهم وعلى غيرهم من الوحوش والأفاعى والجوارح من الطير بل ومن كل حيوان مفترس ، لأن أذيتهم ليست بالقوة الجسمانية فقط ، بل بالقوة الجسمانية والقوة الناطقة وبالقوة المفكرة والمديرة وبالعقل المكتسب ، فإن رجلاً شريراً قد يكون شراً على الناس من ألف سبع لأنه يفسد أخلاقهم ويفرق مجتمعاتهم ويقودهم إلى المعصية والخصومات والمشاحنات، ولو دخل ألف سبع بلداً لما أضروها إلا فى دجاجها وبعض ماشيتها ، وقد يسلمون من السباع بغلق أبوابهم عليهم ، أما الكافر بالله المكذب بآيات الله فإنه شر حتى من الشيطان الرجيم ، دليل على ذلك أن الشيطان لا عمل له إلا الوسوسة ، فإذا وسوس فى قلب المؤمن والمؤمن محفوظ بعناية الله من وسوسته فلا يضره الشيطان ولو اجتمع ألف شيطان على مؤمن محفوظ لا يؤثر عليه . قال تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان)^(٢) ولكن الكافر المكذب بآيات الله إنسان مخادع يمكنه أن يخدع الناس بكل أنواع الخدع ، فيفتح أبواب الفتن ويوقع الناس فى الشرور . حفظ الله المسلمين جميعاً من شر الكافرين .

الآية ليست تكراراً :

وقد تقدم الكلام فى معنى قوله تعالى : (إن شر الدواب) فى الآية ٢٣ من السورة وليس هذا تكراراً للآيات ولكنه بيان جلى لما عليه أهل الكفر بالله تعالى (فهم لا يؤمنون) لخبث طباعهم ؛ لأن نفوسهم خلقت من أسفل سافلين فغلقت قلوبهم وصمت أذانهم وعمت أبصارهم وبصائرهم كما أخبر الله عنهم فى الآية السابقة بقوله تعالى : (الصم البكم الذين لا يعقلون) فنفى الله عنهم العقل فى الآية الأولى ، ونفى عنهم الإيمان فى هذه الآية بلفظ المضارع الذى يفيد التجدد والاستمرار إلى يوم القيامة ، وفى هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ الذى يحزنه عنادهم ونزاعهم وتعصبهم لآلهتهم الباطلة .

(١) آل عمران : ١١٧ .

(٢) الإسراء : ٦٥ .

قوله تعالى : الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) .

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية : بنو قريظة ونظائرهم من اليهود ، لأن بنى قريظة عاهدوا رسول الله ﷺ على أن يكونوا له أنصارا فى وقت الحرب والسلام فخانوا ونصروا قريشا فى غزوة الخندق ، بل وخانوا مرارا كثيرة ، وهذا معنى قوله : (الذين عاهدت منهم) وهم قريظة (ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة) أى : إن هؤلاء المخادعين بعد أن يعاهدوا النبى ﷺ لا يتركون بادرة من بوادر الغدر والخيانة إلا سابقوا إليها دائبين فى تغير ما بأنفسهم نزوعا إلى الباطل ونقضا للعهود (وهم لا يتقون) أى : لا يتورعون عن الخيانة .

قوله تعالى : فَإِمَّا تَثَقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) .

أى : تدركنهم فى الحرب متمكنا منهم (فشرد بهم من خلفهم) أى : بددهم وفرقهم ومزقهم ، والمعنى : فشردهم تشريدا يكون رهبة وخوفا لمن خلفهم ، وهذا التشريد يكون به تبديد وتمزيق وتفريق من خلفهم من نظرائهم كاليهود والمشركين ، وهذه الآية عمل بها رسول الله ﷺ فى بنى قريظة وكفار قريش ، فإن بنى قريظة نصروا قريشا فى واقعة الخندق فخانوا بذلك عهودهم ، وقريشا خانوا العهود بقتلهم بنى خزاعة الذين كانوا حلفاء رسول الله فى أيام الهدنة ، فانقض رسول الله ومن معه على الفريقين قبل أن يعلنهم بالحرب ، لأنهم نقضوا عهدهم معه وهذا حكم الله فى كل عدو لنا نقض عهده ؛ فإننا نقاتلهم بدون إعلانهم وعلى غرة منهم ، فواجب إمام المسلمين أن ينفذ هذه السياسة الحربية الحكيمة ، وكم بين القرآن من السياسات والحكم العمرانية التى بها سعادة المسلمين إذا تمسكوا بها ونفذوها ؛ لأن العمل بتلك الحكم العالية كبح لجمام النفوس الشريرة ، وهذا حكم الله فيمن ظهرت خيانتة . وأما حكمه فى أهل النفاق الذين ينقضون عهودهم بالكيد والختل فقد بينه سبحانه فى الآية التالية :

قوله تعالى : وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ (٥٨) .

الخوف هنا : هو غلبة ظن بأن يظن ﷺ خيانة قوم بعهدهم ، أو تقوم الحجة الظاهرة على ذلك ، فإن الله تعالى أمر نبيه أن ينبذ إليهم على سواء ، أى : يعلنهم بنقضه عهدهم وبالحرب حتى يعلموا بذلك فيتجهزوا للقاء ، وهذا حكم الله فيمن لم يظهروا للبيان نقض عهدهم ، وفى ذلك حكمة يدركها أهل العلم فقد بين الله خيانتهم بقوله: (إن الله لا يحب الخائنين) وما لم يبينه الله تعالى أن القوم الذين يظهرون الوفاء بالعهد وهم يخونون سرا فإن إنذارهم بالحرب ربما أظهر كذب الخبر عنهم بالخيانة أو أرجعهم إلى الوفاء بالعهد والتوبة مما كانوا أظهروا ، كما فعلت قريظة مع رسول الله ؛ فإنهم بعد أن عاهدوه ﷺ ما لئوا أبا سفيان مظهرة على رسول الله ، فلما خافوا رجعوا نادمين ، ثم خانوا ثم رجعوا نادمين ، ثم خانوا فى غزوة الخندق خيانة لا تغتفر ، فباغتهم رسول الله ﷺ وأنزلهم على حكم سعد (على سواء) حتى يستوى علمهم بالحرب بعلمك به وفاء بعهدهم لله تعالى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

أى : إنه سبحانه وتعالى لا يحب من غدر وخان العهد ، وما لا يحبه الله تعالى لا يحبه المؤمنون ، فإنهم مطالبون مكلفون أن يطلبوا من السر النية بالإخلاص ومن الجسم العمل بالاعتداء برسول الله ﷺ .

قوله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) .

أى : ولا يحسبن كفار قريش ممن كان معهم العير وافتلوا يوم بدر من القتل (سبقوا) أى : نجوا منا ولحقوا بأهلهم فى أمن (إنهم لا يعجزون) أى : لا يعجزوننا وأنا مدركوهم فمهلكون من سجل عليهم القضاء بالكفر ومنجون من سبقت لهم الحسنى.

قوله تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ

يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

(٦٠) .

(القوة) هنا : هى الرمى ، فبحسب زمانهم النبل ، وبحسب زماننا (المسكته) البندقية والمدافع والمقذوفات النارية، وهى القوة التى عناها الله تعالى .

﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾

حبس الخيل ، وقد ورد أن طعامها وشرابها وروثها وبولها حسنت إذا حبست في سبيل الله ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يركبون ذكور الخيل في الصف ، وإنائها عند مباغته العدو أو مفاجأته لأن الذكور تصهل وهم لا يحبون إشعار الأعداء بصهيل الخيل فيركبون إنائها في المباغته والمفاجأة ، وأما في الحرب فذكور الخيل أقوى في الكر والفر من إنائها (ترهبون به عدو الله وعدوكم) أى : تخيفونهم من صولتكم .

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾

أى : وآخرين من المنافقين دون هؤلاء القوم من الظهور والعداوة لا تعلمونهم لأنكم ترون منهم المسالمة والنفاق فتظنونهم موالين والله يعلم أنهم أعداء ، وإعداد القوة ورباط الخيل يرهبهم منكم فيذلون لكم (الله يعلمهم) أى : إن الله العليم بما تخفى الصدور يعلم ما هو عليه في الحقيقة ونفس الأمر مهما تخفى ضمائرهم ، وفي هذه الآية تهديد لهم ويقظة لأهل الإيمان ، وبعد أن بين سبحانه وتعالى ما عليه أهل الكفر وأهل النفاق وبين السياسة الحكيمة التي يجب أن يكون عليها المؤمنون حث أهل الإيمان على بذل ما يطبقونه من الأموال والخيل والسلاح إعلاء لكلمة الله تعالى ونصرة لرسوله ﷺ .

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾

وهذه الآية الشريفة : بيان للمؤمنين أن كل نفقة أنفقت في سبيل الله كثرت أو قلت فإنها ترد إليهم وافية زاكية في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، فإن (من) هنا للتبغيض (وشئ) نكرة مبهمة تصدق على القليل والأقل وعلى الكثير والأكثر . ومعنى (يوف إليكم) أى : يرده الله إليكم وافيا ناميا في وقت الحسرة والندامة يوم العرض الأكبر على رب العزة (وأنتم لا تظلمون) (الواو) للحال ، والآية خبر من الله تعالى لنا أنه تنزه وتعالى عن أن يظلمنا فقيرا أو قطيلا ولكنه جل جلاله يعدل بالحق ويفضل بالإحسان .

خير النفقة :

وهذه الآية بيان من الله تعالى للمؤمنين ، بين به ما يلزمهم في أموالهم بعد أن بين ما يتعلق بالجهاد في سبيله وغيره ، وخير نفقة ينفقها المؤمن نفقة في سبيل الله تعالى وخير وجهة ما ينفق في إعلاء كلمة الله وإحياء سنة رسول الله ﷺ بجهاد الأعداء أو بنشر العلوم النافعة بين الأمة ، وتكون النفقة لمساعدة العلماء ومساعدة طلبة العلم حتى يتفرغوا لبيان ما خفى من الكتاب والسنة وتجديد ما اندرس ، وهذا أول فريضة وجبت على المسلمين وهي الأصل ، والأعمال في العبادات والجهاد بالسيف فرع منها ، والجاهل لا عمل له وإن ملأ بطاح الأرض والسماء عبادة .

قوله تعالى : **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) .**

بعد أن بين الله تعالى أحكام من نقضوا عهدهم الذي عاهدهم به رسول الله ﷺ ، وحكم سبحانه عليهم بالمباغطة على غرة ، كما فعل عليه الصلاة والسلام في فتح مكة وخيبر وبنى قريظة ، وحكم جل جلاله على من نخاف منهم خيانة بنذ عهدهم وإعلانهم بالحرب رعاية للعدل الذي يحبه الله حتى يكونوا على استعداد ، وقد بينت حكمة ذلك فيما تقدم ، وفي هذه الآية بيان للحكمة التي ذكرتها ومعنى (جنحوا) أى : طلبوا ورغبوا ، وهى بتثليث تشكيل النون فتفتح وتضم وتكسر فى المضارع ، و(للسلم) أى : للمسالمة وهى بكسر السين وفتحها (فاجنح لها) أى : فارغب فيها ومل إليها متحفظا من غدرهم وكيدهم (وتوكل على الله) أى : فوض أمورك فيهم إلى الله تعالى الذى يعلم نواياهم ومقاصدهم ، فإنه سبحانه وكيلك الذى لا يكلك حتى ولا إلى نفسك وما عليك إلا أن تأخذ بظاهرهم (إنه هو السميع العليم) أى : وأنت على يقين حق أن وكيلك الذى توكلت عليه سميع لأقوالهم عليم بخفى أسرارهم قادر على الانتقام منهم وتمكينك منهم وتمكينك من النصر عليهم .

قوله تعالى : **وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ تَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) .**

﴿ **وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ تَخْدَعُوكَ** ﴾

أى : وإن يريدوا أن ينقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته متربصين لك الدوائر فإن الله يكفيك شرهم وكيدهم ، وهو حسبك ووليك يعصمك من الناس ولو اجتمع عليك من بأقطارها من الإنس والجن (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) أى : أن الله الذى هو حسبك هو الذى أيدك بنصره يوم بدر مع قلة العدد والعدد ، وهذا النصر برهان على أن القوة لله جميعا .

نصر الله بأسباب ظاهرة وباطنة :

ولما كان النصر من الله تعالى يكون بأسباب باطنة وظاهرة ، ومن الأسباب الباطنة : إمداده لكم بالملائكة ومنها كلمة كن ، ومن الأسباب الظاهرة الريح قال ﷺ : (نصرت بالصبا وهلك قوم عاد بالدبور) ، ومنها طير أبابيل والطاعون

ومنها جنود الله المؤمنون وهم من نصر الله تعالى ، ومعنى الآية : أن الله تعالى أيدته بجيش من الملائكة (هو الذى أيدك بنصره) يخبرنا عنه بقوله وبجيش من أوليائه المهاجرين والأنصار وكلهم من نصر الله .

(وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) و (الألفة) هى : التوادد والتحابب والتعاون على البر والتقوى، أثبت سبحانه وتعالى التأليف بين القلوب إليه جل جلاله ؛ لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ، فهو الذى يخلق فيها الحب والود واليقين والصبر والرضا والخشية والرغبة والرغبة وتصريف النوايا والمحاسبة والمراقبة وغير ذلك من معانى الشهود والوجود والتوبة والإنابة ، فلا يمكن أن توجد معنى من تلك المعانى فى القلب إلا والله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها فيه ونشط الجوارح لها كما قال سبحانه : (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه)^(١) وإذا كان الحق سبحانه وتعالى خلق أعمال العباد جميعها فمن باب أولى تكون أعمال القلوب مخلوقة له سبحانه .

فضل الأخ فى الله :

وهذه الآية : برهان على أنه سبحانه هو الخلاق العليم، ومن علامة ولايته للعبد أن يحس من نفسه بحب إخوانه فى الله حتى يشعر بتأليف الله لهم فيكون الأخ فى الله أعز على العبد من ماله وولده، وهى جذبة الحق للمخلوق بسابق المحبة ، وقد ورد أن الأخ فى الله إذا تقابل مع أخيه فى الله فصافحه وقبض على يده غفر الله ذنوبهما، وكيف لا ؟ والله تعالى يقول : (وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) فإن تأليف القلوب دليل على إحسان علام الغيوب ، وليس فى الأرض أنفاس تفتح لها أبواب السماء ونطيب بها معالم الأرض ويرضى الله بها عن العبد مثل أنسه ومسرته بإخوانه فى الله تعالى، بل ولم يرى إبليس كئيها حزينا إلا فى مواقف : يوم عرفة عند الموقف ، وفى صفوف الجهاد ، وفى أنس الأخ بأخيه فى الله ؛ فإنه يلطم وجهه ويضع التراب على رأسه حزنا وهو يقول : (أفسدت قلوب هؤلاء القوم سنين طويلة فبدل الله ما ارتكبوا من السيئات والكبائر فى نفس واحد) ، وكفى الإخوان فى الله قول الله تعالى : (وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) وفى هذا المقام يكون الإخوان على يقين أن هذا الفضل من الله تعالى برهان على حبه لهم، ويكون هذا أكمل إذا كانت الألفة فى طاعة وتقرب إلى الله وفى شوق إليه ، وقد وردت الآيات والأحاديث الصحيحة بالثناء والبشائر للمتحابين فى الله المتعاونين على طاعته سبحانه وإعلاء كلمته وتجديد سنن رسول الله ﷺ ، وفى صحيح البخارى ومسلم وموطأ مالك أحاديث صحيحة كلها بشائر للمتحابين فى الله .

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾

(١) المجادلة : ٢٢ .

هذه الآية الشريفة حجة قائمة للمتحابين في الله أن توددهم وتحاببهم وتآلفهم فعل الله تعالى ، ولو أن رسول الله ﷺ أنفق ما في الأرض جميعا من ذهب وفضة وماشية ومناخ وعقار ليؤلف القلوب ما ائتلفت ، هنا يجب علينا ان نشكر الله تعالى وأن نسأله دوام الحب في الله والمزيد من الحب لنكون محبين له حتى يحبنا ، والحق أقول أن كل محب لله محبوب لله ؛ لأن الله تعالى يقول : (يحبهم ويحبونه)^(١) فسبقت محبته لنا وكتب الإيمان في قلوبنا وزينه لنا وأيدنا بروح منه (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)^(٢) .

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾

محبة الناس ومحبة المؤمنين :

حجة لأهل مشاهد التوحيد العالية وهي أن هذا التآلف والتحابب فوق تآلف وتحابب الناس لأسباب دنيوية مادية ولا يمكن أن يقوم به إنسان آخر ولو أعطى ملك الأرض ، وليس في الإنسان حقيقة بشرية برياضتها وتركيبها يمكنها أن تتجمل بتلك المعاني أبدا ، لأن الإنسان له حد محدود في المحبة الكونية فإذا أكمل فيها بذل قليل ماله وقليل جاهه وقليل صحته ، ولكننا نرى المؤمن إذا أحب أخاه في الله فداه بماله وأهله وقد تبلغ المحبة به حتى يفديه بنفسه غير معلل بعلة أو جزاء ، ولا يكون ذلك إلا من الله تعالى ، ومن لم يذق طعم محبة الله ينكر علينا هذا كله لجهالته به، (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) فأهل المحبة في الله هم الذين أخبرنا رسول الله ﷺ عنهم بقوله : (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها أتلف وما تناكر منها اختلف) يشير هذا الحديث الشريف إلى التعارف يوم الست بربكم ، فإن من سبقت لهم الحسن من الله إذا أنستهم شواغل الكون ومقتضيات مطالب الجسم (يوم ألت) إذا ذكروا تذكروا فعشقوا فحضرُوا حضورا لا غياب له ، وأما من لم تسبق لهم الحسن إذا ذكرتهم الملائكة لا يذكرون ولا يحضرون ، ودليل ذلك موسى بن عمران عليه السلام وموسى السامري - قبحه الله تعالى - فإن الكليم عليه السلام رباه فرعون والسامري رباه جبريل ومع ذلك فشتان بين من تذكر ومن لم يتذكر .

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

أى : أن الله تعالى عزيز أى قوى قادر قهار إذا انتقم من أعدائه وأعدائك انتقم بعزة وقهر (حكيم) أى أنه قدر ما قدره بحكمه وأبرزه بعزه وقوة .

(١) المائدة : ٥٤ .

(٢) النور : ٤٠ .

قوله تعالى : **يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤).**

هذه الآية الشريفة عامة والآية السابقة خاصة في غزوة بدر ، وقد نزلت قبل بدر بعد أن ذكر الصحابة بما كانوا عليه قبل الإسلام من التهاجر والتقاطع والتدابير والفتن الماحقة والعداوة المتأصلة بين الأوس والخزرج وما من الله عليهم ببعثة رسوله ﷺ مما بينه في قوله : (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم)، خاطب الله رسوله بقوله : (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أى : يكفيك ويعصمك من الناس ؛ لأن أعدائك ينصرون الباطل والباطل لا قوة له ، وأنهم لا طمع لهم فى أجر ولا ثواب وذلك مما يضعف قلوبهم ، وأنت تنصر الحق القوى القاهر الذى هو حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وعلى ذلك فتكون (من) معطوفة على الكاف فى حسبك فى محل جر، وجائز أن يكون المعنى : (حسبك الله) ومن أمدك بهم من المؤمنين الذين أقامهم الله لنصرتك وتأبيدك فتكون (من) معطوفة على لفظ الجلالة فى محل رفع (واتبعك) أى : اقتدى بك وصدقك فيما جئت به من عند الله .

قوله تعالى : **يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥).**

معنى هذه الآية الشريفة : أن الله تعالى يأمر حبيبه ﷺ بحض المؤمنين وحثهم على القتال مبينا سبحانه لهم أنه معهم يمدهم بحوله وقوته وطوله فيجعل العاقبة لهم مهما كانت كثرة عدد الكافرين وقوة عدتهم وكانت قلة المؤمنين ، فإن الله تعالى وعدهم بالنصر وجعل لكل مؤمن واحد عشرة من الكافرين بحكم صريح مقيد بالعدد ، بدليل قوله تعالى : (أن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وأن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) بين الله حكمة قوة المؤمنين وخذلان الكافرين بقوله تعالى : (بأنهم قوم لا يفقهون) والإشارة عائدة إلى ما بينه الله تعالى فى قوله : (إن يكن منكم) أى : ذلك الحكم لأنهم لا يفقهون من الله تعالى ما أوحى به إلى نبيه محمد ﷺ ، وبعدهم فقهم له تكون همته فى الجهاد نزع شيطانية لا تلبث إلا أن تزول من هيبة المؤمنين التى جملهم الله بها من قوة اليقين فى نيل النصر والظفر من الله تعالى كما وعد، أو من نيلها مع الفوز بالجنة والنعيم المقيم فى روضات الجنات .

قوله تعالى : **أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) .**

سبب نزول هذه الآية :

سبب نزول هذه الآية : أن الله تعالى لما أمر المؤمنين وهم قليل في الجهاد حرم الفرار على المسلم أمام تسعة من الكفار أو أمام عشرة ، فإن زادوا عن ذلك وفر متحيزا أو متحرفا كان مجاهدا ، ولما كثر المسلمون خفف الله الحكم عليهم في الجهاد ، وعلى هذا فتأويل الآية : (الآن) بعد كثرتكم عددا وتفوقكم عدة خفف الله عنكم حكم الجهاد فيحرم على المسلم أن يفر من أمام اثنين ، ولا حرج عليه إذا فر أمام ثلاثة بدليل قوله تعالى : (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبون مائتين وإن يكون منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله) .

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾

علم الله تعالى ذاتي سابق :

هذه الآية من الله تعالى لفائدة الخبر وليست للزوم ؛ فإنه سبحانه وتعالى يفيدهم علما بأنه جل جلاله يعلم ما هم عليه ، ويعلم الكليات والجزئيات بعلم ذاتي سابق ، لا يتوقف علمه جل جلاله بالجزئيات على إحداثها لأن الذي يعلم الجزئيات بعد إحداثها يكون علمه حادثا ، وهو - تنزه وتعالى - ليس كمثله شيء في كل شيء أى أن نزاهته فوق الأشياء وفي كل الأحوال.

ومن تأول الآية الشريفة في قوله : علم أن فيكم ضعفا ، وفي أمثالها من الآيات أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات إلا بعد إحداثها يكون قاس الغائب بالشاهد ولا مناسبة بين الخلاق العظيم والمخلوق الحقير ، وقد كان بعض الصحابة يجد في الحكم الأول الذي يفرض على المؤمن الثبات أمام عشرة من الكفار مشقة عليهم فرحمهم الله وهو أرحم الراحمين وخفف عنهم ، وليست الآية ناسخة لما قبلها ؛ لأن النسخ لا يدخل في الإخبار ، ولأن الحكم يدور مع حكمته ، فلو قدر وصار المسلمون في حالة تشبه حالة غزوة بدر للزم الإمام أن يعمل بالحكم الأول حتى يكثروا فإذا كثروا عمل بالتخفيف .

﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا ۚ

أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝٦٦﴾

هذه الآية شرطية تقابل الآية الشرطية التي قبلها ، وهو التخفيف الذي تفضل الله به علينا بعد أن كان حكم الجهاد أن المسلم يهاجم عشرة من الكفار خفف الله عنا فجعل المسلم يهاجم كافرين أو يدفعهما ، وليست هذه الآية ناسخة لما قبلها ولكنها وسعة من الله تعالى وللإمام أن يتصرف في هذين الاثنين حسب معطياتها عند كثرة المسلمين أو قلتهم (فإن يكن منكم مائة صابرة) والصبر : هو تجرع النفس مرارة الحكم بثبات ويقين . قوله تعالى : (إن الله مع الصابرين) أى : أنه سبحانه معهم بتأييده ونصره ، وفى قوله : (وإن يكن منكم ألف يغلب ألفين) تفصيل وبيان جلى صريح لا يحتاج لتأويل.

قوله تعالى : مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ ۚ حَتَّىٰ يُثْخِرَ ۚ فِي الْأَرْضِ ۚ

تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) .

قصة أسرى بدر :

هذه الآية الشريفة : تأديب لرسول الله ولأصحابه فيما حصل منهم في أسرى بدر ، فإن رسول الله ﷺ جمع خيرة أصحابه وشاورهم في الأسرى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله بنوا معنا ومن أرحامنا وأن نأخذ منهم الفداء عسى الله أن يهديهم للإسلام أو يخرج منهم مسلمين ، وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله أخرجوك وأذوك ، والرأي عندي : أن تأمر على بن أبى طالب أن يقتل عقلا أخاه ، وأن تأمر الحمزة بن عبد المطلب أن يقتل عباسا أخاه ، وأنا أقتل فيها من قرابتي ، ونقطع أعناق الباقي ، وقال عبد الله بن أبى رواحه رضى الله عنه : الرأي عندي أن نلقى بهم فى غيضة ونجعلها عليهم نارا ، فسكت رسول الله ﷺ ، وأعاد أبو بكر رأيه فاستحسنه رسول الله ورضى به الصحابة وقبلوا الفداء من الأسرى ، فطلب رسول الله ﷺ الفدية من العباس ، وكانت أربعين أوقية من الذهب ، فقال : يا محمد إني رجل فقير لا أملك شيئا ، فقال : أنت الذى أودعت عند أم الفضل مالا وفيرا وأوصيتها أنك إذا قتلت فى بدر تعطى الفضل كذا فقال : والذى بعثك بالحق لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، ولكن استر على يا ابن أخى ، فلما قبلوا الفداء أنزل الله تعالى هذه الآية معاتباً ومؤدباً ، وجاء عمر رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فوجده يبكى ومعه أبو بكر فقال ما يبكيكما يا رسول الله ، إن كان مما يبكى بكيت وإن لم يكن يبكى تباكيت ؛ فقال رسول الله ﷺ كاد ينزل بنا عذاب لا ينجو منه إلا أنت ، ومعنى الآية : أن الله

تعالى ينفي عن أى نبي كان أخذ الفداء من الأسرى (حتى يثخن فى الأرض) أى : يتمكن منها بقتل الكافرين وقتل الأسرى .

وقوله : (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) تأديب لهم ؛ لأن (تريدون) هنا بمعنى أتحبون العرض الزائل الفانى الذى هو عرض الدنيا والله تعالى يحب لكم الآخرة لأنها دار النعيم المقيم، ومن طلب النعيم المقيم فر من الدنيا وما فيها ليفوز بالخير الأبدى (والله عزيز حكيم) يعنى : أن الله تعالى قوى قادر قهار يقهر أعداءكم و (حكيم) فى أحكامه التى أمركم بها فلا يأمر بحكم إلا وهو يتضمن حكمة وسرا لو انكشف لكم لتضاءلت الدنيا وما فيها فى أعينكم ولكن الله يحب من عباده الذين يؤمنون بالغيب ويسلمون له سبحانه وتعالى تسليما من غير أن يكون لهم رأى ولا هوى يؤولون به أحكامه .

قوله تعالى : **لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (٦٨) .

والمراد بالكتاب هنا : ما قدره الله أزلا من أخذ الصحابة الفدية ومن مغفرته لهم، وجائز ان يكون ذلك الكتاب الذى كتبه الله أن يكون الله غفر لأهل بدر كل ما فعلوا ، وجائز أن يكون ذلك الكتاب : ما قدره الله تعالى أن الصحابة أخذوا الفدية مجتهدين لأنه لم يكن هناك نص صريح ينص بقتل الأسرى.

قوله (لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) لما كانت (لولا) حرف امتناع لوجود ما منع مس العذاب لهم لوجود الكتاب الذى كتبه أزلا ، والمعنى : أن الله تعالى دفع عنهم مس العذاب لوجود ما كتبه الله أزلا من المغفرة لهم ، وفى هذه الآية يقظة من القلوب حتى لا يقدم المؤمن على عمل حتى يعلم أنه محبوب الله وإن لم يعلم ذلك سأل أهل العلم حتى يعمل على بصيرة .

قوله تعالى : **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٦٩) .

(فكلوا) هنا أمر للإباحة لا للوجوب و (مما غنمتم) أى : مما حصلتم عليه من أموال الكفار بعد قتلهم وهزيمتهم، وكانت محرمة على الأمم السابقة لأنهم كانوا إذا غنموا غنيمة وضعوها فى محل خال فتنزل نار تحرقها ، ولكن الله أكرمنا فاحل لنا الغنائم ولم تحل لغيرنا ؛ فقوله تعالى : (حلالا طيبا) أى : أحلها الله لنا فصارت حلالا (والطيب) هو مالا ضرر فيه ويعين على شكر الله تعالى (واتقوا الله إن الله غفور رحيم) أى : اتقوا محارم الله والأخذ بالرأى والهوى بدافع الطمع

(إن الله غفور رحيم) و(إن) هنا باسم الغفور الرحيم بشرى لهم بأن الله سبحانه غفر لهم تلك المعصية ورحمهم فبدلها حسنات .

قوله تعالى : يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يََعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) .

سبب نزول هذه الآية الشريفة : أن العباس بن عبد المطلب وعقيل ابن أبي طالب ومن كان معهما من الأسرى تألموا من الفدية ، فقال العباس : (يا رسول الله إنا أسلمنا فأعطنا العشرين أوقية من الذهب التي أخذتها منا فدية) ، فقال له رسول الله ﷺ : (لا نرد عليك ما كنت تعين به المشركين ولكن الله يعطيك خيرا منهما) فأنزل الله تعالى : (يا أيها النبي قل لما في أيديكم من الأسرى) وهم العباس بن عبد المطلب واتباعهم من أسرى بدر: إن كان سبق لكم في علم الله خيرا يعلمه الله لكم ، فإن ما لا يعلمه الله لا وجود له وما يعلمه لا بد وأن يوجد، وليس المعنى أن الله تعالى يخبرهم إن وجد في قلوبهم خيرا يعلمه بعد وجوده كما فهم بعض المفسرين مستدلا بهذه الآية : إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات إلا بعد حدوثها، فقد فهم خطأ ، والمعنى : ما بينت ومعناها أن الله يعلم لهم خيرا قدره في أزله لا بد يحدثه ويبرزه للعيان ، وإن لم يعلم في قلوبهم خيرا قدره لهم ، فإن ما أخذ منهم من الفدية هو انتقام عاجل من الله لهم (في قلوبكم خيرا) أى : إيماننا بالله ورسوله ورغبة في جهاد في سبيله وبغضا في مساعدة الأعداء .

﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾

أى : يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من رزق حلال واسع وتمكين في الأرض بالحق في الدنيا ، وتوفيق وهداية وعلم وعمل وإيمان ويقين بالآخرة مما به الفوز في النعيم المقيم .

﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾

تقدم أن المغفرة هي الستر ، وحذف المفعول ليدل على مغفرة عموم الذنوب ما قبل الإسلام وما بعده مما لا عصمة فيه لغير الرسل عليهم السلام . (والله غفور رحيم) أى يستر الخطايا والذنوب (ورحيم) أى : يبدلها بإحسان منه وفضل ، وهنا قال العباس بن عبد المطلب : (إن الله وعدنى أن يؤتيني خيرا مما أخذ منى وقد أخذ منى عشرين أوقية من الذهب التي كنت أعددتها لمساعدة كفار قريش على محاربة رسول الله ﷺ فأبدلنى الله عشرين عبدا لضرب كل واحد منهم فى ألف دينار، وأعطانى زمزم وهى خير من أموال أهل مكة ، وإنى أطمع فى أن أفوز ببقية ما وعدنى به يعنى المغفرة) .

قوله تعالى : **وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ**

عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) .

تأويل هذه الآية : أن الله تعالى يهدد كفار قريش وخصوصا من افتدوا ومن انهزموا في غزوة بدر وأقارب من قتلوا منهم وغيرهم ؛ فيقول الله تعالى لخاتم الأنبياء مخاطبا له : (وإن يريدوا خيانتك) وإن (يريدوا) أى : يحبوا خيانتك أى : نقض عهدهك (والخيانة) هى : الغدر (فقد خانوا الله من قبل) (الفاء) هنا رابطة لجواب الشرط (فقد خانوا) أى : تحقق غدرهم وخيانتهم ونسب سبحانه خيانتهم إلى نفسه بقوله : (خانوا الله) تهويلا للخيانة وبيانا للحقيقة التى يجهلونها ، فإنهم - قاتلهم الله - كانوا يكذبون بالله وبآياته وفى ذلك تسلية لرسول الله ﷺ وبيان للحقيقة فى نفس الأمر وانذار من الله لهم بفادح العقوبة على خيانتهم ؛ لأنهم خانوا الله (من قبل) أى : من قبل هذا العهد فى غزو بدر مع كثرة عددهم وعددهم (فأمكن منهم) أى : نصرك عليهم ومكنك من دمائهم وأموالهم وأذلهم بالقتل والأسر والفداء (والله عليم حكيم) تقدم الكلام على هذه الآية إلا أنها تذكر لمقتضيات دعت إلى ذكرها ، والمعنى والله قادر قاهر يسرع بالانتقام منهم إذا خانوا بعد (وحكيم) فيما قدره عليهم فلا يبرز إلا ما قدر ولا يقدر إلا لحكمة .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ**

اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا

مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ

النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) .

افتتح الآية بحرف التوكيد تقوية للخبر ويقظة للقلوب حتى يكون الإصغاء إلى الآية أكمل وأتم (الذين آمنوا) أى : صدقوا الله ورسوله (وهاجروا) أى : تركوا وطنهم الذى هو مسقط رؤوسهم وأهلهم وأموالهم وأولادهم حرصا على الدين وبعدا عن الفتن العمياء الصماء للكافرين ، أخرجت هذه الآية من آمن ولم يهاجر (وجاهدوا) والجهاد : هو بذل ما فى الوسع من النفس والمال ، إعلاء لكلمة الله تعالى وإظهار لدين الله على الدين كله ، وقوله تعالى : (بأموالهم وأنفسهم) وقدم المال على النفس سبحانه ؛ لأن الإنسان قد يلقي بنفسه فى التهلكة حرصا على المال ، فالمال هو الخير وهو قيام تلك الحياة الدنيا وخصوصا فى الزمان الذى صار أغنياؤه بخلاء لا يخرجون زكاة أموالهم ، وصار حكامه ظلما لا يراعون العدل فى أحكامهم ، وصار علماءه حساده حرصا على الجاه والمنزلة ، وصارت نساءه أهل كيد لا يؤمن جانبهم ، فالأغنياء بخلوا بزكاة المال ، فكيف يجودون فى

الجهاد ؟ ! والحكام يطلبون الناس في جمع الدنيا ، فكيف يبذلون ما في أيديهم لوجه الله ؟ ! فالجهاد حجة الله القائمة للمجاهدين أنهم مؤمنون حقا ، ومعلوم أن الصلاة عادة والصيام جلادة والحج زهادة والجهاد حجة ، ومن لم تقم له الحجة فإيمانه ناقص .

﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

أى : أنهم جاهدوا أنفسهم حتى بلغوا الجهد فقهروها على أن يقدموها مع أموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، فالمجاهد خارج من بيته ليفوز بالشهادة أو يكرمه الله بالنصر ، وهو على يقين من الفوز بإحدى الحسنين . إما الفوز بالشهادة وهى الغاية العظمى أو بالنصر والغنيمة وهما الخير الكثير فى الدنيا وفى الآخرة إن راعى فى ذلك جانب الله تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا ﴾

وهذه الآية الشريفة خاصة بالمهاجرين ، والهجرة الأولى الحبشة والثانية إلى المدينة ، ومن الصحابة من فاز بالهجرة من هاجر إلى الحبشة وهاجر من الحبشة إلى المدينة ، وهناك هجرة أخرى وهى هجرة الحبشية فإن بعض المستضعفين من الذين فى مكة لما قدم رسول الله ﷺ بالجيش فى العمرة فى رمضان ومنعه أهل مكة من العمرة وحصل الصلح على أن يدخل مكة بدون سلاح معتمرا ويمكث فيها ثلاثة أيام ، انتهز الفرصة هؤلاء المستضعفين وهاجروا إلى المدينة خشية من قريش وهى هجرة الصفا ، ولما ذكر بالثناء الحسن من آمنوا وهاجروا فى غزوة بدر من المهاجرين عطف عليهم الأنصار ، وما أنعم الله به عليهم فى قوله سبحانه : (والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) وتأويل هذه الآية الشريفة : أن الذين آووا رسول الله والمهاجرين معه وأسكنوهم فى دورهم وأطعموهم من قوتهم وشاركوهم فى أموالهم (ونصروا) أى : نصروا الله ورسوله بأموالهم وأنفسهم وقاتلوا عدو الله وعدوهم ونصرهم الله تعالى ببدر لأنهم نصره سبحانه ، قال تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم) ، (أولئك بعضهم أولياء بعض) الإشارة عائدة إلى المهاجرين والأنصار الذين ذكرهم فى الآية ، وأولى ببعض يعنى : أن بعضهم أولى ببعض الآخر فى الميراث وفى العقل وفى غيرهما .

الأنصارى يرث المهاجرى :

وهذه الآية تدل على أن المهاجر إذا مات فإن الأنصارى يرثه ، وليس لوالديه وإخوته وأولاده الكفار حق فى الميراث .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

أثبتت هذه الآية أن القرابة والإخاء محصوران في الأبوة والبنوة الروحية ، لأن رسول الله ﷺ أولى بنا من أنفسنا ، ومن كان أولى بى من نفسى فهو بالأولى أولى بى من غيرى من أب وأم وأخ ، ويكون أبنائى وإخوتى هم المؤمنون الذين هم فى ولاية رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : (أدخل الإسلام بلالا فى نسبى ، وأخرج الكفر أبا لهب من نسبى) . وقال ﷺ : (سلمان منا أهل البيت) فرفعه إلى أن جعله متصلا برسول الله نسباً بسبب إيمانه .

(والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا) . هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن الذين آمنوا ببكة واستضعفوا بها وأظهروا الكفر أمام الشركين لحفظ أعراضهم وأموالهم فحكم الله تعالى بحرمانهم من ميراث أقاربهم المهاجرين ومن ولايتهم فى شؤونهم الخاصة والعامة حتى يهاجروا من بلد الكفر إلى بلد الإسلام مادام على الأرض بلد إسلامى يحمى أهلها فليس لهم حق فى الميراث ولا فى الولاية حتى يهاجروا .

قوله تعالى : (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إن من لم يهاجروا إذا حصل عليهم اعتداء بسبب تمسكهم بالدين وإظهاره ، وطلبوا منكم النصرة فالواجب عليكم إغايتهم بشروط ، منها أن يكونوا استنصروكم فى الدين، ومنها أن يكونوا مع قوم ليس بينكم وبينهم ميثاق لأن الوفاء بالعهد من شيم المسلمين، وهذا لا يمنع من أن إمام المسلمين يتوسط بينهم وبين القوم بالحكمة إغاثة لهم لا بالحرب والتهديد لقوله لتعالى : (والله بما تعملون بصير) أى : والله بصير بقلوبكم وجوارحكم (بصير) علماً ورؤية لا يخفى عليه شئ فهو بصير بالنوايا فى القلوب وبصير بحركات وسكنات الجوارح ، فالقلب يعمل والجوارح تعمل ، وهذه الآية يقظة لقلوب المؤمنين أن يتحروا فى أعمالهم القلبية والجسمية رعاية الله تعالى عملاً بأحكامه واقتداء برسوله ﷺ .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)** .

هذه الآية تقابل الآية السابقة من أن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض ، فذلك الكافرين يكونوا أولياء بعضهم، ومخالفة هذه الأحكام الصريحة فى القرآن تنتج ما توعد الله به مخالفته وهو قوله تعالى : (إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) إلا أداة التوكيد (إن) هنا مضغمة فى (إلا) إن أنتم لا تفعلوه أى : تنفذوا أحكام الله تكن فتنة فى الأرض ، أى : تفتحون أبواب الفتنة العمياء الصماء عليكم فى الأرض بسبب موالاتكم للكافرين . وقال ﷺ : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ، فقال أحد الصحابة أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً يا رسول الله . قال ﷺ : (تمنعه عن الظلم فذلك نصره) فالواجب علينا نصره المسلم

ظالما أو مظلوما وما والى مسلم كافرا إلا أقام الحجة على نفسه أنه مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

والفتنة هنا : ظهور أهل الباطل على أهل الحق ، وفي ذلك ما فيه من غضب الله على من والى أهل الكفر حتى جعلهم يضلون أهل الحق وظهور الكافرين على المسلمين فتنة في الأرض (وفساد كبير) والفساد الكبير هو الظلم والتظالم .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) .**

تقدم بيان هذه الآية (مفردات) في الآية التي سبقت ، ولما كانت الآية السابقة أنزلت لبيان ما للمهاجرين والأنصار من ولاية بعضهم لبعض، وهذه الآية الصريحة أنزلها الله تعالى لبيان من صدق الله ورسوله وهاجر وجاهد في سبيل الله بالمال والنفس من المهاجرين والأنصار وأمثالهم لأن باب الهجرة بمعناها لا يزال مفتوحا إلى يوم القيامة - كقول الحسن رضى الله عنه - وبذلك لا تكون الآية مكررة، ووجه آخر يقتضى عدم تكرارها وهو أن الآية المتأخرة بين الله لنا فيها ما أعد لهم من جزاء بتلك الصفات التي هي الإيمان بالله وبالهجرة وبالجهاد في سبيله بالمال والنفس .

﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾

اسم الإشارة عائد إلى من أثنى الله عليهم بالإيمان والهجرة والجهاد وقوله : (أولئك هم المؤمنون حقا) حصر وحكم من الله بأنهم المؤمنون الكاملون في إيمانهم وقوله : (حقا) تأييدا لهم في إيمانهم، وتكون المعنى : هم المؤمنون الكاملون في الحقيقة ونفس الأمر . (لهم مغفرة وذنوب ورزق كريم) أى : جزاء أولئك المجملين بتلك الصفات مغفرة لذنوبهم (والمغفرة) هى الستر أى : يستر الله تعالى ذنوبهم عن أنفسهم وعن الملائكة وعن الجن والإنس حتى لا يكون عليهم شاهد بذنوب يوم القيامة، (ورزق كريم) أى : طعام شهى لذيق من نعيم الجنة ومعنى (كريم) أن الإنسان يأكله فلا يكون منه رجيع بل يصعد على أجسامنا كاللؤلؤ الأبيض أطيب من ريح المسك ؛ لأن الجنة لا نوم فيها ولا يتغوط فيها الإنسان ولا يبول ، لأن النوم موت قصير والبول والغائط ذلان حفظ الله بهما الإنسان من نسيان نفسه المؤدى إلى عذاب الله يوم القيامة ، لأن العاقل حين يتغوط ويبول لا ينسى حقيقة يوم القيامة، ولما كانت الجنة كل ما فيها من النعيم يذكر العبد بربه ، لأن أهل الجنة يرون آثار قدرة الله جليلة وفضله العظيم متواليا وأهلها يتحققون بكمال العبودية فى مشاهد لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا
وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٥) .**

بين الله تعالى أنواع الناس بالنسبة للإسلام فمنهم كافر ومنهم منافق، ومنهم مؤمن هاجر وجاهد بالمال والنفوس ، ومنهم مؤمن لم يهاجر ولم يجاهد ثم هاجر وجاهد فالحقه الله بمن سبقه ، ومنهم كافر آمن وهاجر وجاهد فى عصره ﷺ فكان منهم أيضا وذلك فضل من الله تعالى وإحسان ولطف.

وتأويل هذه الآية الشريفة : أن الذين آمنوا من بعد ذكرهم الله بالهجرة والجهاد بعد إيمانهم ، هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألحقهم الله بالسابقين الأولين بدليل قوله تعالى : (فأولئك منكم) أى : من أهل السابقة ولم يقل سبحانه : معكم، وفى قوله : (منكم) كمال الإحسان من الله تعالى ؛ لأنه سبحانه ذو الفضل العظيم .

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾

هذه الآية الشريفة نسخت الآية التى قبلها من أن المهاجرين والأنصار أولياء بعض ، لأن الآية كانت تحرم الأقارب من ميراث المؤمنين فكان يرثه أخوه المؤمن من الأنصار ، فلما فتحت مكة وعم الإسلام وانتشر فى جزيرة العرب حكم أن أولى الأرحام بعضهم أولياء بعض، وقوله (فى كتاب الله) أى : فيما أنزله الله تعالى من أحكام الميراث فى سورة النساء، وإن كان أبو حنيفة غفر الله له ، كان يرى استحقاق ذوى الرحم فى الميراث ويقول (هذا فى كتاب الله) والحقيقة : أن المراد بقوله تعالى فى كتاب الله ، أى سورة النساء (إن الله بكل شئ عليم) أى : بكل شئ خلقه عليم . لا يخفى عليه شئ .



من مؤلفات الامام المجدد السيد محمد ماضي ابوالعزائم
في جانب تفسير القرآن :

١ - هذا السفر الجليل " أسرار القرآن " .

٢ تفسير سورة القدر .

في جانب العقيدة :

١ - كتاب عقيدة النجاة .

٢ - كتاب الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها .

في جانب العلوم الفقهية:

١ - كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ وآله .

٢ - صيام أهل المدينة المنورة .

٣ - هداية السالك إلى علم المناسك .

في جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١ - سيرة النبي ﷺ وآله .

٢ - وسائل إظهار الحق .

في جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

- ١ - النشأة الثانية.
- ٢ - الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.
- ٣ - الشفاء من مرض التفرقة.
- ٤ - الجفر.
- ٥ - تحذير الدين من بيع أراضي فلسطين.
- ٦ - النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.
- ٧ - الرد على نظرية دارون.

في جانب الأخوة الإسلامية :

- ١ - الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ وآله.
- ٢ - الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

في جانب المناسبات الدينية :

- ١ - السراج الوهاج في الإسراء والمعراج
- ٢ - بشائر الأخيار في مولد المختار
- ٣ - مشارق البيان في فضائل شعبان
- ٤ - لبيك اللهم لبيك.

في جانب المسرحيات الدينية :

- ١ - محكمة الصلح الكبرى.
- ٢ - العالم والتاجر والفلاح.
- ٣ - المقتصد والمصرف والفاسد.
- ٤ - السياسى والحكيم والغشيم.
- ٥ - الصالح واللص والسكرى.

في جانب الصلوات والأدعية :

- ١ - نيل الخيرات بملازمة الصلوات.
- ٢ - الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.
- ٣ - الأدعية والاستغاثات الكبرى.

في جانب التصوف :

- ١ - شراب الأرواح من فضل الفتاح.
- ٢ - تذكرة المرشدين والمسترشدين.
- ٣ - معارج المقربين.
- ٤ - الطهور المدار على قلوب الأبرار.
- ٥ - من جوامع الكلم.
- ٦ - الطريق إلى الله تعالى.
- ٧ - الفرقة الناجية.
- ٨ - دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب آل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضمون

١٥- الصوفية والتصوف

في جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول،

جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية في مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

أسرار القرآن

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي الغرائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع

بورسعيد

تليفون المكتبة /

002 022 3901030